



عمل الطيران الروسي شريكاً في الصراع المسلح إلى جانب النظام السوري، إلا أنه على الرغم من شدة فعالياته في العمليات القتالية، وقدرته العالية على التدمير، وإسقاط عدد أكبر من الضحايا البشرية والمادية، إلا أنه فعلياً لم يستطع أن يغير معادلات الهزيمة والانتصار التي بقيت تتأرجح بين جانبي الصراع المسلح، المحمولين على الدعم الخارجي، سواء لجهة النظام (إيران، روسيا، الميليشيات الطائفية)، أو لجهة المعارضات المسلحة بفضلها ذات التبعات الأيديولوجية والتمويلات الخارجية، أو فصائل الجيش الحر التي توارت بشكل إيجاري تحت ضربات ما تسمى فصائل إسلامية متشددة، طرحت ثمارها المسمومة بحملة اغتيالات واسعة لناشطين سلميين، وقفوا ضد ممارساتهم بكل شجاعة، ومنهم أخيراً الشهيدان رائد الفارس و Hammond جنيد، وكانت عملت على تحجيم دور المعارضة السياسية الوطنية، لتتولى كيانات المعارضات المرتهنة دور الأبواق السياسية لفصائل سلاح الأمر الواقع.

ولكن سقوط طائرتين روسيتين غير وجه الصراع في سوريا، وأعاد توزيع قوى التحالفات، بعد شبه استقرار نحو أربع سنوات متتالية، بين محور إيران الداعم المباشر للنظام، ومعه مليشيات طائفية، يتقدمها حزب الله ومليشيات "فاطميون" و"زينبيون" وغيرها، مقابل فصائل مسلحة محسوبة على "المعارضة"، مدعومة أميركياً وأوروبياً وعربياً، وتدير معظمها تركيا عبر الشمال السوري المفتوح على الحدود السورية بما يقرب من 800 كم، ما هيأ لسقوط الطائرة الروسية بنيران القوات التركية، في نوفمبر/تشرين الثاني 2015، أن تكون البوصلة الجديدة ونقطة التحول في مسار الأحداث في الشمال، وتحديداً في حلب، حيث مركز الصراع على النفوذ بين النظام والمعارضة المسلحة.

كما كان الحال عند الحادثة الثانية بين روسيا وإسرائيل، في 23 سبتمبر/أيلول 2018، والتي أسست لتفاهمات دولية جديدة،

ووسعـت من نفوـذ موسـكو في المـلف السـوري، وقلـصـت من قـدرـة الطـيرـان الإـسـرـائـيلي على استـبـاحة الأـجـواء السـورـية، فـي مقابل استـسلام إـيرـان الصـامت لـمـطـالـب إـسـرـائـيل بالـانـسـحـاب التـدـريـجي من المـنـاطـق الـحدـودـيـة معـها، وـلـاحـقاً لـتـصـريـحـات إـيرـانـية مـهـادـنة لـالمـطـالـب المشـترـكة الإـسـرـائـيلـية الـأـمـيرـكـية، عـلـى الرـغـم من سـرـيان عـقوـبـات الـأخـيرـة عـلـيـها .

وـمع الإـقـرار بـحـجم تـلـك المـتـغـيرـات الـكـبـرى، تـبـدو خـرـيـطة الـحـرـاك الـمـيدـانـي في سـورـية ضـبابـية مع تـحرـيك القـوى المـتـصـارـعة عـلـى سـورـية مـوـاقـعـها بيـن فـيـنـة وأـخـرـى، عـلـى الرـغـم من الـهـدوـء النـسـبـي الـذـي أـعـقـب الإـعلـان عن إـنـهـاء الـهـدـنـة الـأـمـيرـكـية الـرـوـسـية (منـطـقـة خـفـض التـصـعيد) فيـ درـعا، عـبـر قـصـف النـظـام وـخـرـقـه لهاـ، وـنـجـاح مـوسـكو بـعـقـد صـفـقة تـسوـيـة جـديـدة معـ المـسـلـحـين الـمـعـارـضـين، تمـ بـمـوجـبـها تـسـليم سـلاحـ الفـصـائـل، وـإـعادـة تـوزـيع الأـدـوار علىـ المـسـلـحـين الـمـعـارـضـين لـلـنظـام، بيـن دـاعـمـين الـجـنـاح الـعـسـكـري الـرـوـسـي وـمـؤـيـدـين لـلـجـيـش السـورـي تـحـت الـوـصـاـيـة الإـيرـانـية، وـأـخـيرـاً فـتحـ مـعـبر نـصـيبـ الـحـدـودـيـ معـ الـأـرـدن الـذـي بـدا كـأنـهـ خـاتـمة لـمـا سـمـيت مرـحلـة الـمـنـاطـق الـمـحـرـرـة فيـ جـنـوب سـورـية عمـومـاً .

وـإـذا كان لا بدـ منـ القـول إنـ تـرـكـيا هيـ مـرـكـزـ الثـقلـ شـمـالـاً، فإـنهـ مـنـذ دـخـولـ الـصـرـاع إلىـ مرـحلـة تـشكـيلـ التـحـالـفـاتـ الـدـولـيـةـ فيـ مـحـورـينـ أـسـاسـيـنـ: الـرـوـسـيـ، وـمـقـابـلـهـ عـلـى التـضـادـ الـمـحـورـ الـأـمـيرـكـيـ، بـدـتـ تـرـكـياـ فيـ عـيـنـ الـعـاصـفـةـ أـكـثـرـ منـ غـيرـهاـ منـ الدـوـلـ الـفـاعـلـةـ فيـ الـمـلـفـ السـورـيـ عـسـكـريـاً وـسـيـاسـيـاً، بـسـبـبـ تـذـبذـبـ الـمـوقـفـ الـأـمـيرـكـيـ مـنـهـاـ تـارـةـ، وـتـقـارـبـ مـصالـحـهاـ معـ مـحـورـ رـوـسـياـ تـارـةـ أـخـرـىـ، وـانـقـاسـمـهاـ عـلـى نـفـسـهاـ فيـ تـوزـيعـ أـولـويـاتـهاـ بيـنـ الـأـمـنـيـنـ، الـقـومـيـ وـالـاقـتصـاديـ، ماـ جـعلـهاـ مـرـنـةـ فيـ التـعـاطـيـ معـ مـوسـكوـ، وـحـذـرةـ معـ واـشـنـطـونـ، وـمـتأـهـبـهـ ضـدـ مـعـارـضـيهـ فيـ الدـاخـلـ بـعـدـ مـحاـوـلـةـ انـقلـابـ 15ـ يـولـيوـ/ـ تمـوزـ 2016ـ، وـمـتـقـلـبةـ فيـ عـلـاقـاتـهاـ معـ أـورـوـبـاـ، وـهـوـ ماـ يـجـعـلـ قـرـاءـ الـأـحـدـاثـ الـلـاحـقـةـ تـتـمـيـزـ بـمـنـعـطفـيـنـ أـسـاسـيـنـ :

أـولـهـماـ، ماـ بـعـدـ إـسـقـاطـ الطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ فيـ الـلـاذـقـيـةـ (18ـ سـبـتمـبرـ/ـ أـيـلـولـ) إـثرـ الغـارـاتـ الـإـسـرـائـيلـيـةـ عـلـىـ مـوـاقـعـ لـلـجـيـشـ السـورـيـ (بعـدـ يـوـمـ منـ اـجـتمـاعـ ثـنـائـيـ روـسـيـ تـرـكـيـ أـبـعـدـتـ فـيـ إـيرـانـ)، اـدـعـتـ إـسـرـائـيلـ أـنـهاـ مـخـزـنـ لـأـجـهـزـةـ إـيرـانـيـةـ مـعـدـةـ لـنـقلـهاـ إـلـىـ لـبـنـانـ، تـسـهـمـ فيـ تـطـوـيرـ مـسـتـوـيـ الدـقـةـ لـدـىـ حـزـبـ اللهـ وـفـيـلـقـ الـقـدـسـ، ماـ تـسـبـبـ فيـ إـطـلاقـ الدـفـاعـاتـ السـورـيـةـ صـوـارـيـخـهاـ "ـخـطاـ"ـ، وـالـتـيـ أـسـقطـتـ الطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ، ماـ دـفـعـ مـوسـكوـ إـلـىـ تـحـمـيلـ إـسـرـائـيلـ مـسـؤـلـيـةـ الـحـادـثـةـ وـمـقـتـلـ 15ـ جـنـديـاـ روـسـيـاـ، حـفـاظـاـ عـلـىـ شـكـلـ عـلـاقـاتـهاـ معـ النـظـامـ السـورـيـ أـمـامـ الشـعـبـ روـسـيـ، وـحتـىـ لـاـ يـسـتـعـجـلـهاـ بـالـانتـقامـ لـقتـلـاهـ مـنـ جـهـةـ، وـلـأـنـ الـأـولـويـةـ لـدـيـهاـ لـعـقدـ صـفـقةـ مـعـ إـسـرـائـيلـ تـمـنـحـهاـ مـهـلـةـ "ـاسـتـراـحـةـ مـحـارـبـ"ـ لـتـرـتـيـبـ أـورـاقـهاـ مـعـ إـيرـانـ، وـمـحـاـصـرـتـهاـ لـإـخـرـاجـهاـ طـوـاعـيـةـ مـنـ سـورـيـةـ، بـمـاـ بـعـدـ شـبـعـ فـكـ الـارـتـيـاطـ مـعـهاـ قـسـرـيـاـ .

ثـانـيـهـماـ، ماـ بـعـدـ اـنـتـفاـقـ (بـوتـينــ أـرـدـوـغانـ)ـ فيـ سـوـتـشـيـ فيـ 17ـ سـبـتمـبرـ/ـ أـيـلـولـ 2018ـ، الـخـاصـ بـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ مـنـطـقـةـ إـدـلبـ ضـمـنـ اـنـتـفاـقـ خـفـضـ التـصـعيدـ، وـإـحـدـاثـ مـنـطـقـةـ مـنـزـوعـةـ السـلاـحـ، فيـ مـقـابـلـ فـتـحـ الـطـرـيقـينـ السـرـيـعـينـ الـلـذـيـنـ يـرـبـطـانـ جـهـاتـ الـشـرـقـ بـالـغـربـ، وـالـشـمـالـ بـالـجـنـوبـ بـعـدـ إـدـلبـ، وـكـذـلـكـ يـرـبـطـانـ حـلـبـ بـالـسـاحـلـ السـورـيـ قـبـلـ نـهـاـيـةـ الـعـامـ الـحـالـيـ، وـتـسـلـيمـ تـرـكـياـ مـهـمـةـ اـنـتـزـاعـ الـمـنـاطـقـ مـنـ تـحـ سـيـطـرـةـ الـقـوىـ الـمـتـطـرـفةـ الـتـيـ تـتـزـعـمـهاـ جـبـهـةـ النـصـرـةـ فيـ إـدـلبـ .

وـعـلـىـ ذـلـكـ، حـسـمـتـ مـعـرـكـةـ حـلـبـ الـصـرـاعـ الـعـسـكـريـ شـمـالـاً لـمـصـلـحةـ التـسـوـيـاتـ، عـبـرـ مـسـارـ أـسـتـانـةـ الـذـيـ تـأـسـسـ بـعـدـ الـمـصـالـحـةـ الـتـرـكـيـةـ الـرـوـسـيـةـ، عـلـىـ خـلـفـيـةـ إـسـقـاطـ الدـفـاعـاتـ الـجـوـيـةـ الـتـرـكـيـةـ الـطـائـرـةـ الـرـوـسـيـةـ 2015ـ، وـبـدـأـتـ أـولـىـ جـوـلـاتـ بـعـدـ سـقـوطـ حـلـبـ فيـ يـدـ الـقـوـاتـ الـرـوـسـيـةـ بـعـدـ مـعرـكـةـ شـبـهـ أـحـارـيـةـ، أـخـذـتـ فـيـهاـ تـرـكـياـ دورـ مـتـفـرـجـ خـلـالـ الـمـعـرـكـةـ، وـالـوـسـيـطـ لـاحـقاـ لـتـحـقـيقـ تـسـوـيـاتـ مـيـدانـيـةـ، وـلـعـبـ دورـ فـاعـلـ فيـ تـغـيـيرـ مـوـاقـعـ الـفـصـائـلـ السـورـيـةـ (الـمـعـارـضـةـ الـمـسـلـحـةـ)، مـاـ مـكـنـ مـوسـكوـ مـنـ التـلـاعـبـ فيـ الـمـلـفـ السـيـاسـيـ، عـبـرـ جـوـلـاتـ أـسـتـانـةـ الـتـيـ تـصـدـرـتـ الـمـشـهـدـ بـرـعـاعـيـةـ ثـلـاثـيـةـ روـسـيـةــ تـرـكـيـةــ إـيرـانـيـةـ، وـجـاءـتـ بـدـيـالـاـ لـجـوـلـاتـ جـنـيفـ الـأـمـمـيـةـ الـتـيـ بـقـيـتـ تـرـاـوـحـ فـيـ مـكـانـهاـ، مـنـ دـونـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ إـنجـازـ أـيـ مـنـ أـولـويـاتـهاـ الـتـيـ مـنـحـتـهاـ لـهـاـ الـقـرـاراتـ

وذلك يعني أن أنقرة كانت بيضة القبان التي استثمرتها موسكو، عسكرياً لإنهاء الفصائل المسلحة، وسياسياً لابتداع مسارات تفاوضية تعطيلية لمسار جنيف، وفي الوقت نفسه الذي لم تستطع واشنطن الحفاظ على تركيا حليفاً قوياً لها شمالاً، إلا أنها، في الوقت نفسه أيضاً، لم تتمكن من القطيعة معها، أو الابتعاد عنها كلياً، ما جعل تركيا الثالث المكمل للمعادلتين الروسية مع إيران والأميركية مع أوروبا، أي أنها لم تحسم خياراتها وموقعها، بسبب أنها تريد دوراً أكبر مما أرادته لها موسكو في الملفين، السياسي والاقتصادي، كما أنها ترغب بعلاقاتٍ أوثق مما هو عليه واقع الحال مع واشنطن، وخصوصاً ما يتعلق بملفيها، الأمني المفتوح على ملف الكرد شمالاً، والاقتصادي الذي تنوء به حكومة أردوغان في ظل الخلافات البينية الأميركية - التركية، كما لا يمكن لإدارة ترامب تجاهل مصلحتها في استعادة التقارب مع تركيا، لضمان وجود آمن لمصالحها في الشمال السوري .

ومن خلال ذلك، يمكن فهم المتغيرات الميدانية الحالية شمالاً، والتي تسمح لتركيا بإعادة توازن الرعب مع القوات الكردية (الحليفة لأميركا)، عبر تهديداتٍ بفتح معركة وجودية معها شرق الفرات، في وقتٍ تظهر فيه الدوريات الأميركية الكردية المشتركة، وتعود أخبار وصول القوات العربية المشتركة (السعودية - الإماراتية) إلى مناطق التماس الكردية التركية للتداول من جديد، تأكيداً على استمرار التحالف بينهم، ولكن بما لا يتعارض مع سياسة الصمت على التهديدات التركية التي تعني المناطق المسيطر عليها "كردياً"، وغير الآهلة عملياً بالوجود الأميركي في شرق تل أبيض وغريها.

المصادر:

العربي الجديد